# المقدمة الأولى

## الفلسفة ... إبداع مصرى

لا يزال كُتاب تاريخ الفلسفة يكتبون، والقراء يقرءون ما درج عليه الحال فيما يتعلق بأصل الفلسفة، ذلك الأصل الذى يردونه دائماً إلى بلاد اليونان محتجين عادة بأن كلمة الفلسفة تعود فى اصطلاحها الأول إلى كلمة يونانية من مقطعين هى Philo-Sophia . ولما كانت الفلسفة بهذا المعنى الأصلى تعنى محبة الحكمة، وكانت الحكمة تعنى آنذاك كل ما يمكن للمرء أن يتوصل إليه من آراء وأفكار واختراعات جديدة، فقد أضحت الفلسفة منذ ذلك الحين أم العلوم ولم يكن ثمة فصلاً يذكر بين مجالها الخاص ومجال العلوم الأخرى. ومن هنا سرت المقولة الشائعة بأن الفلسفة والعلم اختراعان يونانيان، وأن الفلسفة نشأت كمعجزة (أى على غير مثال سابق) عند اليونان منذ طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد.

والحقيقة التى أود أن أنبه إليها أن هذه المقولة التى ترد الفلسفة والعلم إلى اليونان وتعتبرها معجزة يونانية هى من قبيل الخرافات التى تروج لها الكتابات الغربية العنصرية التى لا تريد أن تعترف للأمم الأخرى بأى إنجاز حضارى حقيقى!! وقد سار المؤرخ العربى عادة على درب المؤرخ الغربى فى النظر إلى الفلسفة على أنها معجزة يونانية وأن اليونانيين اخترعوها على غير مثال سابق، وهذا خطأ شائع تكذبه الدراسات المعاصرة المحايدة حول هذا الموضوع كما تؤكده كتابات المؤرخين والفلاسفة اليونانيين القدامى أنفسهم ! فبالإضافة

إلى ما هو معروف من تأكيدات لهؤلاء الفلاسفة القدامى عن زيارتهم لبلدان الشرق القديم وخاصة مصر والاستفادة منها والتعلم على يد حكمائها ومعلميها، وبالإضافة إلى كتابات المؤرخين اليونان القدامى وعلى رأسهم هيرودوت الذى أفرد فى تأريخه قسماً كبيراً لتوضيح التأثير المصرى غير المحدود على الفلسفة والديانات والعلوم اليونانية.

أقول بالإضافة إلى كل ما هو معروف فى هذا الشأن وأكده سارتون فى تأريخه للعلم ويل ديورانت فى روايته لقصة الحضارة وغيرها، أقول : إننى اكتشفت أن أفلاطون قد أكد فى محاورة "قراطيلوس" أن أصل كلمة Sophia غير يونانى، وأنها من أصل أجنبى. وقد كشف مارتن برنال فى كتابه "آثينا السوداء" عن أن أصل هذه الكلمة مصرى، فهى تعود إلى لفظة هيروغليفية هى Sb3 التى تعنى يعلم تعليماً ونقلت إلى اليونان وحرفت لتصبح Sophia.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن أول من أطلق كلمة فيلو سوفيا في اليونان هو فيثاغورس الفيلسوف والعالم اليونانى الشهير حينما سئل : هل أنت حكيم ؟ فرد قائلا: الحكيم هو الإله، أما أنا فمحب للحكمة! وعرفنا أن فيثاغورس قد قال ذلك متأثراً بتعليمه فى مصر القديمة - حسب المكتشفات الأثارية الحديثة وروايات المؤرخين القدامى - لأكثر من عشرين عاماً، ذلك التعليم الذى كان يرد العلم فيه إلى الإله وينسب فيه كل شيء إلى الملك - الإله ولا يكتب الكاتبون فى إطاره إلا بإذن الإله.

أقول إذا ما عرفنا ذلك وأضفناه إلى ما قاله أفلاطون قديماً وأكده برنال - رغم عدم قراءته لهذه المحاورة الأفلاطونية - بدراساته اللغوية حديثاً لأدركنا بكثير من اليقين أن الـ Sophia أى الحكمة أو ما ندعوه بالعربية الفلسفة هو إبداع مصرى قديم نقل إلى بلاد اليونان عبر العلاقات الثقافية والصلات الحضارية التى كانت بين بلاد اليونان حديثة العهد بالفكر والعلم وبين الحضارة المصرية بكل عراقتها وأصالتها اللامحدودة فى مجال الإبداع الحضارى بكافة

صور، وأشكاله. فليس من قبيل المبالغة إذن أن نعلن ونحن نحتفل هذا العام وكل عام باليوم العالمى للفلسفة ما أكدناه فى دراساتنا الأكاديمية العديدة أن الفلسفة كغيرها من مختلف الإبداعات الحضارية هى إبداع مصرى أصيل وأن معلمى الحكمة للعالم هم فلاسفة مدينة أون القديمة ومدينة منف القديمة ومدينة واست (الأقصر) القديمة. وأن فلاسفة من أمثال بتاح حوتب (ق. 27 ق.م) وآيبوور (ق 20 ق.م) وإخناتون (ق 14 ق.م) هم معلمو الإنسانية الأوائل وأنه من خلال تعاليمهم والتأثر بها ازدهر الفكر الفلسفى فى اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد. ولتلاحظ أيها القارئ العزيز أننى قلت "ازدهر" وليس "نشأ" فالنشأة اصطلاحاً ومعنى كانت فى مصر القديمة.

# المقدمة الثانية

## ((الماعت)) جوهر الفلسفة المصرية !

إن الإعجاز الحقيقى للحضارة المصرية القديمة هو اكتشاف فلاسفة مصر القديمة وإيمان شعبها عبر العصور القديمة بـ"الماعت Maat"، تلك الكلمة التى يكمن فيها حقيقة سر أسرار عظمة وثبات وقوة واستمرار الفاعلية الحضارية لأكثر من أربعة آلاف عام متصلة فيما قبل الميلاد.

والماعت تعنى فى رأى رواد التاريخ والفكر المصرى القديم من أمثال سليم حسن وأحمد كمال وحتى عبد العزيز صالح وعلى رضوان "العدالة والنظام".

ولقد تأسس المجتمع المدنى المصرى منذ فجر التاريخ على نوع من العقد الاجتماعي غير المكتوب بين الحكام والمحكومين على هذا المركب السحرى "العدالة والنظام"؛ فالمجتمع السياسى الناجح هو الذى يحقق لأصحابة والعائشين فى ظله العدالة والنظام، والعدالة هنا مفهوم له أبعاده الأخلاقية والسياسية والاقتصادية، بل قل : إن شئت أيضاً أن له أبعاده الاجتماعية. وإذا ما اقترن تحقيق العدالة بتوفير النظام والأمن للجميع صرنا أمام ذلك المجتمع المثالى المتنور الذى حلم به المفكرون والمصلحون عبر العصور ولا يزال هو الحلم الذى يراودنا حتى الآن!

إن العدالة هى أساس توفير الأمن وتحقق النظام في المجتمع؛ فإذا ما عرف كل إنسان حقوقه - حسب القانون - وقام بما عليه من واجبات يحتمها

نفس القانون، سواء كان هذا الإنسان حاكماً أو محكوماً لصار هذا المجتمع بالفعل مجتمعا منظماً قادراً على تحقيق الإنجاز الحضارى المنشود حسب قدرات كل فرد من أفراده، وحسب المؤهلات التى يحملها ويوظفها كلاً منهم فى خدمة نفسه ومجتمعه.

وحينما يقرأ القارئ هذا الكلام قد يتصور أننا نقول شيئاً بعيداً عن واقع الحال فى مصر القديمة حسب المقولات التى شاعت وترددها نحن للأسف عن مصر القديمة وحكامها بوصفهم فراعنة مستبدين !! رغم أن الحقيقة التى يعرفها من تعمقوا فى دراسة تاريخ الفكر المصرى القديم أن "الماعت" كانت مطلباً مشتركاً بين الحكام والمحكومين فى مصر القديمة؛ إذ كان الفرعون - وهو بالمناسبة اصطلاح يعنى صاحب البيت العظيم - (أى الملك) يفخر ويعتز بشيء واحد طوال فترة حكمه مهما امتدت هو قدرته على تحقيق هذا الماعت والسهر عليه بين مواطنيه؛ فتحقيق الماعت (أى العدالة والنظام) بين الحكام والمحكومين هو مهمته الرئيسية ويكون نجاحه مرهونا بقدرته على ذلك. ولتتأمل معى قول الملكة حتشبسوت : "لقد مجدت "الماعت" التى يحبها الإله لأنى أعرف أنه يعيش منها. إنها أيضاً خبزى وإنى أشرب رحيقها بكوني جسداً واحداً معه" لتدرك معى كم كان فخرها بتطبيقها للعدالة فى المجتمع، وكم كانت فخورة بتوحدها مع العدالة لترضى الإله الذى هى جزء منه !

ولتتأمل معى هاتين المحاكمتين اللتين جرتا فى الأسرتين السادسة، والأسرة العشرين وكان موضوعهما واحد هو مؤمرة قام بها نساء القصر وبينهن زوجة الملك ضد الملك حيث قام قضاة مصر بمحاكمة المتهمين فى القضيتين باستقلال تام عن الملك الذى لم يتدخل فى الحالتين فى سير القضية. إن موقف بيبى الأول (الأسرة السادسة) ورمسيس الثالث (الأسرة العشرون) وبينهما حوالى ألفى عام يؤكد احترام ملوك مصر القديمة للسلطة القضائية وضرورة تحقيق المحاكمة العادلة للمتهمين حتى لو كانوا من الأسرة الملكية، وحتى لو

كانت المؤمرة دبرت لقتل الملك ذاته!! أتريدون دليلاً أكثر من ذلك يكشف لكم سر حب المصريين القدماء للوكهم، وكيف كان هذا الحب العامل المؤسس للدولة القديمة ولإبداعات المصريين فى كل مجالات الحياة!

ولعل جميع القراء الأعزاء يذكرون قصة ذلك القروى الفصيح وشكاواه التسعة، تلك الشكاوى التى اتخذها الناس دليلاً على الظلم الذى كان يتعرض له المصرى القديم، وإذا ما أعاد أى منكم قراءة تلك القصة جيداً منذ بدايتها حتى نهايتها وبالذات نهايتها سيدرك كم كان الملك المصرى فى تلك الفترة عظيماً حينما أمر بأن يستمر هذا القروى فى شكاواه حتى يستطيع معرفة أسرار ما يجرى فى ملكه العريض، فى الوقت الذى أمر فيه بأن يرسل لأسرة هذا القروى المؤن التى يحتاجونها فى فترة غيابه لأنه كان يعلم أن هذا القروى حينما خرج من داره فقد أفرغها من ما فيها من مؤن إلا ما يكفى أهله مدة غيابه يوماً أو يومين! وكم كان هذا الملك عظيماً حينما اقتص من المعتدى بعد عزله من وظيفته بأن تؤول كل أملاكه لهذا القروى الشاكي تعويضاً له عما لاقاه من إهانة ومن ظلم على يد هذا المعتدى رغم أنه كان أحد أفراد حاشيته !

ذلك كان حال المجتمع المصرى القديم، وتلك كانت عوامل استقراره، تلك العوامل التى لخصتها كلمة "الماعت" التى كانت قاسماً مشتركاً بين صنوف الخطاب السياسى فى مصر القديمة سواء كانت خطاب السلطة ممثلة فى الملوك والوزراء وحكام المقاطعات أو كانت فى خطاب الحكام الذى طالبوا دوما بتحقيق العدالة والنظام وحين غيابهما كان النقد والرفض للأحوال القائمة هو لغة خطابهم واقرأ فى ذلك برديات ايبوورونفررو هو أو كانت فى خطاب الشعب الذى مثله خير تمثيل شكاوى هذا القروى الفصيح.

إن الخطاب السياسى فى مصر القديمة بكافة صوره إذن كان جوهره "الماعت" ومن ثم كانت "الماعت" هى الصيغة التى بنى عليها العقد الاجتماعى الذى استمر مستقرا لآلاف من السنين بين حكام مصر ومحكوميها.